

الرمز الصوفي عند أبي مدين شعيب

The Sufi symbol according to Madin Shuaib

بوهني مصطفى / جامعة منتوري 01 / قسنطينة
bouhenni05@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2025/02/10 تاريخ القبول: 2025/05/24 تاريخ النشر: 2025/09/01

ملخص: يهدف هذا المقال إلى دراسة موضوع "الرمز الصوفي عند أبي مدين شعيب" حظي الرمز عموما و الرمز الصوفي خصوصا باهتمام الكثير من الشعراء في المغرب العربي القديم حيث كان بارزا في الكثير في مدوناتهم الشعرية ن ويمثل أبو مدين تحولا لافتا للانتباه في تعابير الشعيرة حيث برز بوصفه شخصية صوفية تركت أثرا شعريا مميذا ، وأسهمت في تفعيل الحركة الشعرية في الميدان الصوفي حيث تناولت ألوان الرمز الصوفي عند أبي مدين شعيب حيث وقفت عند مختلف الرموز الصوفية التي استخدمها الشاعر وكان لها أثر كبير على مستوى الكتابة الشعرية من جهة والمضامين من جهة أخرى .

كلمات مفتاحية: المغرب العربي، الشعر، الرمز، التصوف ، أبي مدين شعيب.

Abstract: This article aims to study the topic of “the Sufi symbol according to Abu Madin Shuaib.” The symbol in general and the Sufi symbol in particular received the attention of many poets in the ancient Maghreb, as it was prominent in many of their poetic blogs. Abu Madin represents a striking transformation in his poetic expressions. He emerged as a Sufi figure who left a distinctive poetic impact, and contributed to activating the poetic movement in the Sufi field, as he dealt with the colors of the Sufi symbol according to Abu Madin Shuaib, where he stopped at the various Sufi symbols that the poet used and had a great impact on the level of poetic writing on the one hand and the contents. On the other hand .

Key words the Arab Maghreb; poetry ; symbol ; Sufism ; Abu Madin Shuaib.

*المؤلف المرسل: مصطفى بوهني.

يعد الشعر من أكثر الأنواع الأدبية تلقينا وانجذابا ، نظرا لأهميته وسحره و تأثيره في المستمع من هنا جاء الشعر تعبيراً عن الوجدان الإنساني من جهة و بعض القضايا الكبرى التي شغلت بال الإنسان من جهة أخرى ، على هذا الأساس كان الشعر ديوان العرب يعبر فيه المبدعون من اجل الوصول إلى هذه الأحاسيس والمشاعر بعيدا عن التقريرية والخطابية التي هي من سمات الإنسانية بل عمد الشاعر إلى اتخاذ الرمز بوصفه أداة فنية تسهم في تقديم الشعر بطريقة أكثر جمالية ولكي نتمكن من فهم كل ما يحيط بموضوع الرمز لابد من التطرق إلى التفسير اللغوي مروراً إلى التعريفات الاصطلاحية المختلفة بإمعان وإتقان .

2/2 - مفهوم الرمز ودلالته الاصطلاحية واللغوية والفلسفية :

أ/ - لغة : وردت كلمة "رمز" في الكثير من الكتب النحوية والقواميس ، إذا استخدمه ابن منظور بقوله : " الرمز: تصويت خفي باللسان كالهمس ، ويكون تحريك الشفتين بكلام غير مفهوم باللفظ ، من غير إبانة بصوت إنما هو إشارة بالشفتين وقيل : الرمز إشارة وإيماء بالعينين والحاجبين والشفتين والفم ، و الرمز في اللغة كل ما أشرت إليه بيد وبعين ، ورمز، يرمز ويرمز رمزا . ورمزته المرة بعينها ترمزه رمزا: غمزته " (1) . وقد وردت كلمة "رمز" في القاموس المحيط : " الرمز فعل رمز فصل الراء باب الزاي ن رمز ويضم ويحرك الإشارة أو الإيماء بالشفتين أو الحاجبين ، أو الفم أو اليد أو اللسان ، يرمز ويرمز والرمازة السافلة و الرميز الكثير الحركة و المبجل المعظم والعاقل والكثير والأصيل والرزين و الراموز: البحر ، و ارمأز: زال ولزم مكانه " (2) .

وجاءت كلمة "رمز" في مقاييس اللغة : " رمز: الراء : الراء والميم والزاء أصل واحد يدل على حركة يدل على حركة واضطراب ، يقال : كتيبة رمازة ، تموج من نواحيها ، و يقال : ضربته فما ارمأز ، أي ما تحرك و ارتمز أيضا : تحرك " (3) .

ب / اصطلاحاً : إن قراءة عميقة في أدبيات النقد العربي المعاصر ، نلاحظ أن الشعر العربي الحديث قد حالفه الحظ في توظيف الرمز بطرائق متعددة له من الأهمية في النص الشعري المعاصر من حيث توظيفه توظيفاً جمالياً ، حيث تعددت واختلفت الآراء والتعريفات حول المصطلح ، وتنوعت الأساليب والعبارات التي استعملها المفكرون والأدباء في تعريفاتهم الاصطلاحية للرمز : فاضحي الرمز ظاهرة فنية يلجأ إليها الكثيرون الشعراء عن وعي بأصولها وآثارها في العمل الشعري فله أهمية كبيرة لدى النقاد والدارسين فكل منهم يعرفه حسب وجهة نظر ، لذا سأحاول تصوير الرمز تصويراً شاملاً على كل المستويات الأدبية واللغوية والفلسفية . فكان " من الطبيعي أن ينظر إلى الرمز في كل المجالات من جهة نظر مختلفة عن الوجهة التي ينظر إليه منها المجالات الأخرى ، لذلك جاء مفهوم الرمز في كل مجال مغايراً لبقية المجالات " (4). فالمعنى الاصطلاحي للرمز يختلف حسب آراء الدارسين والباحثين حيث يعد "قدامة بن جعفر" أول من تكلم عن الرمز في كتابه نقد الشعر فيقول : " هو أن يكون اللفظ القليل مشتملاً على معاني كثيرة بإيماء إليها ولمحة تدل عليها " (5) . ثم جاء "أرسطو" و قسم الرمز إلى مستويات ثلاث رئيسية وهي " الرمز النظري أو المنطقي ، وهو الذي يتجه بواسطة علاقة الرمزية إلى المعرفة ، والرمز العملي وهو الذي يعني الفعل والرمز الشعري أو الجمالي ، وهو الذي يعني حالة باطنية معقدة من أحوال النفس وموقف عاطفياً أو وجدانياً " (6) .

وقد اهتم الشعراء والنقاد بالرمز اهتماماً كبيراً إذ استعملت هذه القضية "للدلالة على المثال : "أن يعبر الفرد عن طبقة ينتمي إليها وقد يراد بها إبانة القليل من الكثير أو الجزء عن الكل ، ومن ثمة يتبادر إلى الذهن أن الرمز ما ينوب بشيء آخر لعلاقة بينهما من قرابة أو اقتران أو مشابهة " (7) .

ج/ الرمز على المستوى العام : شكل الرمز رافداً جمالياً في بنية النص الشعري وعليه قسمه "أدوين بيفان" إلى نوعين : الرمز الاصطلاحي : "ويعني به نوعاً من الإشارات المتواضع عليها كالألفاظ باعتبارها رموزاً لدلالاتها " (8) و الرمز الإنشائي : ويقصد به : "نوع من الرموز لم يسبق التواضع عليه ن ويمثل في ذلك ، الرجل الذي ولد أعمى فتوضح له طبيعة اللون القرمزي بأنه يماثل نفيير البوق " (9) . وبعيداً عن تعريفات

الباحثين والأدباء لـ "الرمز" فان تعريفه البسيط يدل على الإيهام والغموض فهو يتضمن معنى غير مباشر، إذ تتناول كلمة وهي في الحقيقة عند تفسيرها نجد أنها تدل على معنى آخر كدلالة الميزان على العدالة، والكلب بوصفه رمزا للوفاء والحماسة رمز للسلام والبكاء رمز للحزن والفرح، والسحب الداكنة، لقروب هطول المطر والأسد يرمز للشجاعة. فان توظيف الرمز جاء مطلباً جمالياً في التجربة الشعرية من جهة و تأدية وظيفة اجتماعية وسياسية. ووسيلة فنية يلجأ إليه المبدع لتكثيف قدرات و دلالة بعض المعاني المهمة والمعقدة الذي لا نستطيع شرحها أو توضيحها ببساطة، فهو عبارة عن لغة تلتبسها لغة أخرى باطنية لا بد من تفسيرها حتى نصل إلى المعنى الحقيقي والمعنى الداخلي للكلمة، لهذا يعتبر الرمز صعب التأويل، وهذا ما جاء به "هنري بريمون" أن للقصيدة معنيين: المعنى المباشر وهو نثر القصيدة و جزء الكدر، والمعنى لا يفيض ولا يستقطر من الأبيات، وهو المعنى الذي لا يفهمه إلى شاعر أشباهه، المعنى السري الذي لا يمكن إيضاحه أو حصره¹⁰ و الرمز عند "فييري بودلير" يرى: "أن كل ما في الكون رمز وكل ما يقع في متناول الحواس رمزي يستمد قيمته من ملاحظة الفنان لما بين معطيات الحواس المختلفة من علامات..."¹¹. فالرمز "وسيلة تعبيرية مركزة ومكثفة زيادة على أنه أداة فنية ن تدخل في جماليات التعبير، ويخضع النص الرسمي أيضا لعملية ذاتية، فالرمز مصنوع من المبدع، و الصناعة لا تعني الخلق بل تعني التشكيل فالمبدع يلجأ إلى الرمز من الواقع لتجاوزه، فيصبح أكثر صفاء وتجريدا، ولكنه لا يرسم الواقع بل يرجعه إلى الذات، ثم يقيم علاقات جديدة خاضعة لرؤيته الذاتية"¹². فالرموز طريقة يعتمد عليها الشاعر للتعبير عن أحاسيسه بواسطة إحياءات، ومصطلحات رمزية غامضة ومهمة وصعبة الفهم ويحمل بين ثناياه عدة معان خفية نسعى إلى تفسيره، والكشف عنه فيمكن "اعتبار الرمز كلمة أو عبارة أو صورة أو شخصية أو اسم مكان يحوي داخله على أكثر من دلالة يربط بينهما محوران رئيسيان يتمثل الأول في البعد الظاهر للرمز وهو ما تتلقاه الحواس منه مباشرة والثاني البعد الباطني أو البعد المراد إحالته من خلال الرمز"¹²، إذ أن الرمز لغة أخرى يعطي دلالات وتفسيرات أخرى تختلف تماما عن المعنى الظاهر

فيقصد بالرمز الشكل الذي يدل على شيء ما له وجود قائم بذاته ويحل محله بمعنى أن الرمز شكل يدل على شيء غيره "13 .

3-3 - أنواع الرموز: اختلفت الرموز وتنوعت أشكالها بحسب مصادر تشكّلها، فهي بالنسبة للشاعر محاولة فنية للتعبير، لكن من جهة المتلقي هي عبارة عن إحياء، فهناك رموز لكل منها وظيفة و غرض، فبعضها يعبر عن أشياء حاضرة والبعض الآخر يعبر عن أشياء غائبة ماضية كانت أو في المستقبل، تصور لنا أشياء مستحيلة الوجود أو تستخدم في الكشف عن أشياء مجهولة .

أ - الرمز الديني: يمثل الرمز حالة من التوهج عند المبدعين نظرا لحدائته لاسيما الاستعمال الديني وهذا ما يتجلى في التجربة الصوفية التي اتخذته واحدة من الآليات الجمالية في الشعرن لأنه بالاستعانة عن بعض الخروقات الدينية، إلا أن هذا لم يمنع الشعراء من إبراز مواقفهم الرائدة لأنه ليس من المعقول توظيف الرمز بعيدا عن الجمالية و النفعية فهو في علاقة تشابك و تداخل مع الأسطورة ولا يمكن الفصل بينهما " لقد أفضى هذا التداخل بينهما إلى القول بتطابقهما إذ كلما أوغلنا في تقصي محتوى الوعي الديني للوصول إلى بدايته الأولى اتضح لنا انه من المحال أن نفصل محتوى العقيدة عن اللغة الأسطورية " 14. ولم يكن الكلام على الدين من أهم الموضوعات الأساسية للشعر قبل الإسلام ولم تكن لها أهمية إلا لدى بعض الشعراء من أصحاب المعتقدات الدينية الذين لجأوا إلى كتهم السماوية المقدسة المختلفة مستمدين منها رموزا أسقطوها على واقعهم فالرموز الدينية المقدسة كانت مرافقة للشعر بدءا من عصر صدر الإسلام حيث وظف الشعراء الكثير مما جاء في القرآن في مدوناتهم الشعرية فكان " أهل الجاهلية يرجعون القسمة إلى الدهر والزمان، فأبطل الإسلام ذلك إذ جعلها بأمر الله مقدر الأقدار، و موزع الحظوظ والأرزاق كما اتسع في الشعر القصص القرآني من قصص الأنبياء كقصة نوح، و آدم، وإبراهيم ويوسف، و موسى عليهم السلام " 15. فآقرنا شعرهم وجدناه متضمن بعضه لألفاظ القرآن الكريم ومعانيه والبعض لألفاظ شبيهة به، وقد كان ذلك بارزا في شعرهم، ولعل اقرب مثال على ذلك ما جاء في شعر "عبد الله بن رواحة" إذ يقول :

شهدت بان وعد الله حق وأن النار مثوى الكافرين
وأن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمين¹⁶.

ب الرمز الفلسفي :

يعد الرمز الفلسفي من أكثر الرموز التي تركت أثرا في الفلاسفة والمفكرين و الباحثين ، فهو من أبرز الرموز الشعرية التي استخدمها بعض المبدعين للتعبير عن قضايا كبرى في الوجود ، و الحياة ، شغلت بالهم فاتسع الرمز الفلسفي ليشمل الإنسانية جمعاء ، فالرمز الفلسفي هو تعبير انفعالات الإنسان إزاء المحيط الخارجي الذي يعيشه وما نراه على سطح جسم الإنسان ما هو إلا ردود أفعال يدل على شيء محدد ولصعوبة فهم المعنى الباطني لتلك السلوكات الإنسانية إذ بين ذلك "برجسون" بفلسفته الحيوية أن " الحالة الدماغية ترسم للحالة النفسية مفاصلها الحركية وقد نعرف الحالة الدماغية التي تصاحب حالة نفسية معينة ، ولكن عكس هذا غير صحيح ، فرب حالة دماغية واحدة تقابلها حالات نفسية متنوعة "

17 .

أما الرمز في نظر الفيلسوف " كاسير " فقد قسمه إلى علامة ورمز ، فالعلامة عنده قيمة مادة تنتج عن ظواهر فيزيائية ، بينما الرمز هو قيم إنسانية من مختلف الإشارات والسلوكات الإنسانية إذ يقول : " فالعلامة جزء من العالم الفيزيائي ، و الرمز بضعة من العالم الإنساني الخاص بالمعنى ، وللعلامات بحسب فهمها و توظيفها على هذا النحو ضرب من الوجود الفيزيائي .

وقد وظف "ابن سينا" الرمز بطريقة فلسفية في قصيدته النفس وتدعى "العيننة " حينما عبر عن النفس في الوضع الذي كانت عليه في عالم المثل ، وحينما هبطت إلى الأرض ، أصاب هذه النفس تغيرات جعلها تتلوث في بعض الحالات بالبراهين ، فيقول "ابن سينا":

" هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

محجوبة عن كل مقلّة عارف وهي التي سفرت ولم تتبرقع " 18 .

ومطلع هذه القصيدة كما نرى يوحي بان النفس كانت تحيا في العالم العلوي وهو ما يعبر عنه ابن سينا بالمحل الأرفع ، وهو في الاصطلاح الديني بمعنى العرش أو

يسميه "أفلاطون" بعالم المثل، ثم هبطت النفس إلينا من هذا العالم القدسي لتحبس في هذا القفص المظلم¹⁹.

(ج) رمز الطبيعة : تشكل الطبيعة جزءاً مهماً للشعراء الصوفيين حيث يبحثون من خلالها عن سر الحياة الدنيوية ، والوصول إلى معرفة الخالق سبحانه وتعالى وكذلك الحب الإلهي . فقد وظف الرمز الشعراء في قصائدهم وحظي باهتمام فاتخذوا من الجبال والأشجار والكواكب والشمس والأنهار والرياح والأمطار رموزاً شعرية في قصائدهم ، وربما كان الرمز الطبيعي مكثف في التجربة الشعرية المعاصرة لاسيما عند الشعراء الرمزيين حيث تفتن الإنسان أن الطبيعة لها أحاسيس وتقلبات مزاجية وبمطرها ورياحها وظواهرها تعبر عن مشاعر الحزن والغضب وأزهارها وشمسها تعبر عن فرحها ورضاها لذا " كانت الطبيعة نبعا للرموز والأساطير لانهاية لها له ، لقد احتضنت منذ البدء ، الفعل الإنساني تثيره ، وتنميته وتحاوره ، وبسحرها وجلالها الغامض الطري ، كانت مصدر لدهشة الإنسان ، ومنبعاً لحنينه وإحساسه بالجمال " ²⁰ .

(د) الرمز الأدبي : دل الرمز الأدبي على الغموض وجاء بطريقة غير مباشرة وحمل في طياته لغة باطنية معقدة تمثلت في الحالات النفسية التي نتعرف خلالها على الأشياء المرموز إليها " فالرمز الأدبي هو ليس إشارة إلى مواضعة أو اصطلاح إنما أساسه علاقة اندماجية بين مستوى الأشياء الحسية الرامزة ومستوى الحالات المعنوية المرموز إليها ، وعلاقة التشابه هنا تنحصر في الأثر النفسي لا في المحاكاة ، من ثم فهو يوحي ولا يصح يغمض ولا يوضح " ²¹ .

شكل الرمز الأدبي مكانة بارزة لدى الشعراء في الشعر العربي القديم حتى شمل كل المعاني الغامضة التي يستحيل فهمها ويصعب استيعابها فهو وسيلة فنية للتعبير عن مختلف القضايا الجمالية بطريقة غامضة.

4-4 / تجليات الرمز الصوفي في الشعر القديم :

نشأ التصوف في حضن الإسلام ونما وشب وترعرع في تربته فهو الروح النابضة بالصدق والوجدان ، فالتصوف يعتمد على مبادئ متنوعة من أهمها صفاء النفس ، فقد أقاموا مذهبهم على أصول الإسلام والتمسك بأدابه وأخلاقه ، لذلك فإن

مصدر التصوف إسلامي يستمد تعليمه من القرآن الكريم السنة لكن هذا الكلام فيه اختلافات كثيرة فمنهم من يقول : " أن التصوف اتخذ الأساس الأول من سلوك الرسول (ص) وبعض الصحابة الذين أخذوا على أنفسهم العبادة والزهد و التقشف و مجاهدة النفس أي أنهم وضعوا البذور الأولى التي انبثقت منها روحية الحياة الروحية ثم نمت و أتت أكلها في حياة التابعين و من تلاهم " ²² . وقد عرف التصوف في بداياته بأنه "رياضات نفسية و مجاهدات للطباع و كسر لشهوات النفوس و تعذيب للجسد كي تصفو الروح ، وإذا كان هذا الصفاء الروحي يأتي بدون تكلف عن السلف نتيجة التربية المتكاملة " ²³ .

و استدلل القائلون: " بان جميع أصول التي يبني عليها الصوفية مذهبهم من مقامات و أحوال و مجاهدات كالتوبة و الورع و الذكر و الزهد و الفقر و الصبر و الأنس كلها موجودة في القرآن الكريم و السنة الشريفة و حياة النبي ص و مسلك الصحابة رضوان الله عليهم " ²⁴ .

ولقد انتشر التصوف في أقطار العالم العربي حتى وصل إلى المغرب العربي وذلك عن طريق النزوحات و المخطوطات ²⁵ ، ولم يحظ بالدراسة الكافية كما هو الشأن في المشرق فأدى إلى ضياع إنتاجهم على رغم من أنهم لم يقوموا بالمغالاة أو المبالغة ²⁶ .

1/4 أشكال الرمز الصوفي في الشعر العربي:

الرمز أسلوب من أساليب التعبير الفني انتشر في الكتابات الصوفية سواء كانت نثرية أو شعرية ، يحاول الصوفيون بواسطته نقل أفكارهم و محاوره رؤاهم . و قد برز استعماله عند الكثير من الشعراء من أجل التعبير عن أفكارهم بطريقة غير مباشرة لهذا فالرمز يخفي حقيقة يكتشفها الشاعر فيه . وأهم ما يميز الشعر عند المتصوفة في القرنين الثالث و الرابع " توظيف الرموز في أشعارهم يصعب على القارئ و يكشف لنا "القشيري" الدوافع التي أدت بهؤلاء المتصوفة إلى اصطناع الرمزية في التعبير فيقول : " اعلم أن من المعلوم أن كل طائفة من العلماء لهم ألفاظ يستعملونها انفردوا بها عن سواهم توطئوا عليها لأغراض لهم فيها من تقريب الفهم على المخاطبين بها أو تسهيل على أهل تلك الصنعة في الوقوف على معانيهم لأنفسهم و الإجماع و الستر على من باينهم ، إذ ليست حقائهم مجموعة

بنوع تكلف أو مجلوبة بضرب تصرف بل هي معان أودعها الله تعالى قلوب قوم و استخلص لحقائقها أسرار قوم " ²⁷ .

ويؤكد هذا القول "إحسان إلهي ظهير" في قوله : " إن الصوفية مصطلحات تعبر عنها ألفاظ وكلمات وتراكيب ولها معان خاصة ومطالب مخصوصة غير ما يدل عليه ظاهر الألفاظ والكلمات أو تتضمن هذه الكلمات والألفاظ مدلولها الظاهر " ²⁸ ، ويبين لنا "الطوسي" معنى الرمز عند الصوفية قائلا : " الرمز معنى باطن مخزون تحت كلام ظاهر، لا يظفر إلا أهله " ²⁹

ولهذا ابتكرت الصوفية معجما خاصا بهم قصد أن تبقى مصطلحاته بينهم فقط ، ولا يستطيع إنسان عادي أن يقوم بشرح رمزوها وفهم مقاصدها لأن المتأمل في أدب الصوفية شعرا أو نثرا يجد رمزا غريبا يصعب فهمه ويقول في ذلك أبو علي الروزباري " علمنا هذه إشارة فإذا صار عبارة خفي " ³⁰ .

ويقول "الكلاباذي" : " اصطلحت هذه الطائفة على ألفاظ في علومها تعارفوا بها ، فأدركه صاحبه ، وخفي على التسامح الذي لا يحل مقامه فأما أن يحسن ظنه فيهموس قائله وينسبه إلى الهذيان " ³¹ .

وهكذا يبدو السبب في نشأة الشعر الرمزي عند المتصوفة هو تلك الحملة التي شنها الفقهاء على المتصوفة ، ويبدو أن المتصوفة جعلوا من ذلك الأسلوب الرمزي قناعا يسترون به الأمور التي رغبوا في كتمانها عن العامة من الناس وعن الفقهاء ولعل ما يميز الشعر الصوفي عن غيره من الأشعار هو تميزه بنزعة الخمرية الغزلية ن التي استقاها من المحسوسات ، ثم نقل إلى عالم تجريدي بحث واتخذ لها معجما خاصا.

أ - رمز الخمرة : شكلت الخمرة في التجربة الصوفية ملاذا ن يلجأ إليه المتصوفة للتعبير عن أحاسيسهم ومشاعرهم اتجاه القضية الدينية ، فكانت الخمرة عند الصوفية كما يقول عاطف : " هي رمز من رموز الوجد الصوفي " ³² . فكانت موضوعا أساسيا في قصائدهم ، فعن طريقها عبروا عن الشوق لمعرفة الله تعالى ومحبته بكلمات تكاد أن تكون كلمات المتغزلين من شعراء الغزل النسيب بل القارئ لا

يستطيع الفصل في كون القصيدة خميرية أم غزلية شأن قصائد الخمرة و الغزل في الشعر العربي القديم .

ب - رمز الغزل: ولم تقف الصوفية عند حدود التعابير الخميرية بل كان للغزل حضور في أبياتهم من حيث استخدامهم فنون الغزل كأداة رمزية دلالات صوفية حرفة ن فعبر الصوفية عن حبه لله تعالى باستخدام رمز الغزل لأنه يعد طريقة فنية لوصف حب العبد لربه وصفا أدبيا وبواسطته يعبر الصوفي عن حبه وعشقه لله تعالى ورغبته في التقرب إليه. يقول في ذلك ابن عربي " ليس في العالم المخلوق قوة أعظم من المرأة ، لسر لا يعرفه إلا من عرف فيما وجد العالم "³³

فالمرأة مقدسة عند الصوفية لا، هم بواسطتها يعبرون عن الحب الإلهي باستعمال لغة إنسانية ، لذلك لم تعد مجرد رمز الحب الإنساني بل أصبحت رمز للحب الإلهي باستعمال لغة إنسانية ن فقد وصفوا المرأة بعدة صفات مثل النقاء و العفة ، و الشهامة ، وأعطوا لها مكانة رفيعة يعبرون عن الواردات الإلهية و التنزيلات الروحانية كابن عربي و ابن الفارض وغيرهم ...

5-5 - الرمز عند أبي مدين شعيب:

لقد كان الرمز في الشعر الصوفي دور متميز ، فقد تعددت أشكاله وتنوعت من صوفي إلى آخر ، فهو بمثابة دعامة أساسية يرتكزون عليها ، ولهذا نجد معظم شعراء الصوفية يكثر من استخدامه في العديد من أشعارهم .

وهذا ما نراه في معظم قصائد أبي مدين شعيب في ديوانه ، بما فيها من الأزجال و الموشحات وقد جاءت معظمها في موضوع الحب الإلهي و من أهمها ، الرمز الغزلي ورمز الخمرة، و ما يتفرع عنها (كالمدام و الشرب و السكر ..) ، كما نجد في بعض القصائد رموز أخرى مثل الطلل و الرحلة ن وهذه رموز كلها تنضوي تحت موضوع الحب الإلهي .

و المتأمل في هذه الرموز يلاحظ أنها تشكل بعدين أساسيين في العرفانية الصوفية و هما الحضور و الغياب . فالغياب " هو بداية السلوك العملي الذي ينجذب فيه المريد إراديا أو المراد لا إراديا ، انجذابا حليا نحو الحق بعد المعرفة الأولى و التي يرى القوم أنها حدثت في الأزل و عالم الخفاء ، والأضلة قبل فعل كن الإلهي " ³⁴ .

أما الحضور كما يقول القشيري : " فقد يكون حاضرا بالحق لأنه إذا غاب عن الخلق حضر بالحق ، على معنى أنه يكون كأنه حاضر وذلك لاستيلاء ذكر الحق على قلبه فهو حاضر بقلبه بين يدي رب تعالى فعلى حسب غيبته عن الحق يكون حضوره بالحق ، فإن غاب بالكلية كان الحضور على حسب الغيبة " ³⁵

فالغياب يكون مع اخلق و الحضور يكون مع الخالق وعلى أساس هذا الغياب يكون الحضور ، وبعد الحضور الصوفي هو الذي غالبا ما يعبر عنه منظروا الصوفية بالحديث القدسي الذي يقول : " ما زل عبيد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحب الحق عبده أقامه مقام القرب منه ، فيكون الحق بمثابة سمع العبد وبصره ويده ورجله ، به يسمع ويرى ويبطش ويمشي ن فلا يكون وقته حينئذ بل وقت أنس وطمأنينة " ³⁶

ومعظم قصائد أبي مدين لا تخرج عن هذين البعدين فبعضها يشكل الغياب بعد الغياب وبعضها الآخر يشكل بعد الحضور ، وفي الأحيان نجد القصيدة تشتمل البعدين معا .
" ومن حيث الكم في منظوم أبي مدين التلمساني خصوصا كما في منظوم الصوفية عموما فإن الغالبة هي عادة لمرحلة الغياب ، ذلك لأن التجربة الصوفية العملية قلما يحظى فيها الصوفي بالحضور ، فقد يظل في شعره دون فتح ، لذلك فقد لا نجد لبعض الشعراء في مجموع شعرهم الصوفي قصيدة واحدة تمثل الحضور وتناضره ، وإن وحدت فهي حكم الترجي أقرب منها إلى حكم الحضور الفعلي " ³⁷
يقول أبي مدين شعيب في بعد الغياب :

تذلت في البلدان حين سبتي	وبت بأوجاع الهوى أثقل
فلو كان لي قلبان عشت بواحد	وأترك قلبا في هواك يعذب
ولكن لي قلبا تملكه الهوى	فلا العيش ين لي ولا الموت أقرب
كعصفورة في كف طفل يضمها	تذوق سياق الموت والطفل يلعب ³⁸

فأبي مدين من الصوفيين الذين يسعون إلى التقرب إلى الله بما يملكه من مجاهدات صوفية ، وهذه القصيدة من شعره يتبين الحب الإلهي والحب الإنساني .
ومن أهم قصائده في بعد الحضور قصيدته النونية المشهورة حيث يقول :
حضرنا فغبنا عند دور كؤوسها وعدنا كأننا لا حضرنا ولا غبنا

و أبدت لنا في كل شيء إشارة و ما احتجبت إلا بأنفسنا عنا .³⁹

تندرج هذه القصيدة في بعد الحضور ، فهي تتميز بكثرة الأفعال الماضية مما جعل كل القصيدة محكية في الماضي ، وهذا يعني أبي مدين شعيب قد ذاق معنى الحب الإلهي الحقيقي.

2. 1 - رمز الخمر: أول ما يلفت انتباهنا ونحن ندرس شعر أبي مدين شعيب توظيفه لرمز الخمرة ، بل نجد أنه نظم قصيدة مطولة لهذا الموضوع وهي خمريته ، والملاحظ عند شعراء الصوفية أن الخمرة تحقق لهم التقرب إلى الله كونها تكشف لنا العلاقة بين الخمرة المادية والوجد الصوفي فهي معرفة بأنها " شراب مسكري سبب التخمرو بسبب تحذيرها للوعي البشري ، وأن الخمرة المجردة باصطلاح الصوفية هي ذوق المحبة الإلهية ، والعلاقة بينهما علاقة مشابهة في الفعل الناتج عنهما لا في الماهية و التكوين ، إذ أن فعل شرب الخمر المادية عند الخمار ، يشابه فعل ذوق المحبة الإلهية عند الصوفي "

40

3. ولعل هذا التشابه بين الحالتين هو ما جعل الصوفية يستعملون الخمر كرمز يعبرون عن حالة تعلقهم بالوجد الإلهي في هذا يقول أبو مدين شعيب :

4. قم يا نديمي إلى المدامة واسقنا خمرا تنير بشرها الأرواح

5. أم ترى الساقى القديم يديرها فإنها في كأسها المصباح⁴¹

6. والخمرة الصوفية عند أبي مدين هي هجرة إلى الله وكشف للحكمة العرفانية فيقول :

7. وغن لنا الوقت قد طاب باسمها لأننا إليها قد رحلنا بها عنا

عرفنا بها كل الوجود ولم نزل إلى أن بها كل المعارف أنكرنا⁴²

و يصف ابن مدين الخمرة بالجمال واللطافة فهي عنده كالخمرة الحسية لأنها تتميز بعدة خصائص ومميزات مثل القدم ، إذ يقول :

أدرها لنا صرفا مزجها عنا فنحن أناس لا نرى المزج مذ كنا

هي الخمر لم تعرف بكرم يخصصها ولم يلجها راح ولم تعرف الدنا

لها القدم المحض الذي شفعت كل محدث وكل قديم فهي قد حازت المعنى⁴³ فالخمرة الصوفية مصدر من مصادر المعرفة الحقيقية الإلهية وبشرها يغيب الصوفي عن الحضور الذاتي وتغيب قلوبهم عن حسها وتبقى روحه متعلقة بالوجود الإلهي .

2- رمز الحب الإلهي: الحب الإلهي هو الركيزة الأساسية التي تدور حولها القصيدة الصوفية ، لأنه أهم وسيلة من وسائل الصوفيين للتعبير عن أحوالهم و مواجيدهم ، ولأن كل شاعريطمح للوصول إلى أعلى درجات الحب الإلهي نجد أن أبي مدين شعيب يرى أن معظم حب في الدنيا هو حب الله وحده فهو لا يتصور الحياة دون مطالعة أنواره ودوام اتصاله بربه فوظف معجما لغويا يضم ألفاظ الحب المتداولة بين الشعر فموضوع الحب الإلهي يسيطر على معظم قصائده . يقول أبي مدين واصفا حال الصوفيين المحبين :

فالعارفون فنوا ولما شهدوا شيئا سوى المتكبر المتعال
ورأوا سواه على الحقيقة هالكا في الحال و الماضي والاستقبال
فالمح بعقلك أو يطرفك هلب ترى شيئا سوى فعل من الأفعال⁴⁴

3- رمز الغزل :

وما يشد الانتباه أن ابن مدين أنه لم يوظف المرأة توظيف مباشر أي بذكر اسمها كما فعل العديد من شعراء الصوفية كابن عربي وابن الفارض، فلا نكاد نجد اسما للمرأة إلا في نونيته في وقوله :

تقول ناس قد تملكه الهوى اجل لست في ليلى بأول من جنا
خفيت بها عن كل من علم الورى وأظهر لبني والمراد سوى لبني
وإني كما شاء الغرام موحد وإن ملت تمويلها إلى الروضة الغنا⁴⁵ .

فنلاحظ أنه ذكر اسم " ليلى " و " لبني " في هذا الموضع ، كما نجده شبه نفسه في الأبيات بالمجنون حيث أصبح دالا على مدى حب الصوفي وعشقه للذات الإلهية ، و قد استعمل أبي مدين شعيب الرمز في تعبيره عن المحبوب الخالق عز وجل وقام بإخفاء المشاعرو أشار إليها ومزج بين محبوبه "الله" ومحبوب إنساني في هذه القصيدة الصوفية.

4- رمز الطلل و الرحلة:

لقد انتقل الطلل بخواصه الشكلية إلى القصيدة الصوفية ، فصار موضوع من موضوعاتها ، غير أن الاختلاف به هو في القصيدة التقليدية ثم في القصيدة الصوفية ، يظهر من جهة موقعه فهو من الأول عادة ما يكون في بداية القصيدة متصدرا أجزاءها قبل أن ينتهي الغرض المطلوب ، وهو في الثانية لا يحتل موقعا محددان فقد يكون في المقدمة وقد يكون في الوسط وقد يكون في النهاية وقد يكون قائما بذاته لوحده في قصيدة أو مقطعة⁴⁶

يقول أبي مدين معبرا عن فكرة الهبوط من عالم الأرواح إلى عالم الأشباح :

لولاك ما كان ودي ولا منازل ليلا
ولا حدا قط حاد ولا سار الركب ميلا
يا حادي العيس مهلا هل جزت في الحي أم لا
عشقتهم فسبونني لا نحسب العشق سهلا⁴⁷
ونجد عند أبي مدين صورا من الطلل و الرحلة و الديار و الأحبة ، تختلف في لغتها و تظهر بمظهر جديد لكن مضمونها يبقى واحدا لان مفرداته اللغوية ثابتة في قوله ك

متى يا عريب الحي عيني تراكم وأسمع من تلك الديار نداكم
ويجمعنا الدهر الذي حال بيننا ويحظى بكم قلبي و عيني تراكم
أمر على الأبواب من غير حاجة لعلي أراكم أو أرى من يراكم⁴⁸
لقد صور أبي مدين الطلل و الرحلة تصويرا مطابقا لما هو عليه في الواقع ولكنه يقصد السفر الروحي فنلاحظ أنه استعمل لغة مهمة غامضة لكن مضمونه يبقى واحد .

وقد حضر موضوع الرحلة في شعر أبي مدين التلمساني وحضر حضورا كبيرا ، ولم تخرج في بنيتها عما درجت عليه الرحلة في القصيدة العربية القديمة عموما ، و القصيدة الصوفية خصوصا فقد بناها أبو مدين على الثنائية المتقابلة ذات العلاقة البنية ، بينه وبين حادي العيس ، وهي العلاقة التي تعمل على إحداث فجوة بينه وبين إلفه من الجيرة وعلى توتر عاطفي ينسحب مداه على أبيات الرحلة كلها ، ويلونها الشجي الحزين⁴⁹
يقول أبي مدين :

أما تنظر الطير المقفص يا فتى إذا ذكر الأوطان حن إلى المغنى

كذلك أرواح المحبين يا فتي تهزها الأشواق للعالم الأسنى
يا حادي العيس مهلا هل حزت في الحي أم لا
فأين كنت و جئت حبيب إلى قد تجلى⁵⁰

فرمز الطلل و الرحلة جعلنا نشعر بمعاناة الشاعر عندما يودع أحبته يوم الظعن
فحالهم الشعورية تكاد تكون واحدة ن إلا أن الاختلاف يكمن في المضمون و ذكر الأمكنة
المقدسة و الأمكنة الروحية و موضوع الرحلة يمد بصلة إلى الحب الإنساني لكن باطنه حب
إلهي.

الخاتمة :

يظهر مما سبق أن الرمز الصوفي هو أساس الشعر الصوفي في عمومته التي يعتمد عليه
كبار الشعراء الصوفيين. ويتشكل شعر أبي مدين على بعدين أساسيين هما بعد الحضور و
بعد الغياب لكن الغلبة كانت لبعد الغياب و بما أن معظم قصائده جاءت أغلبها في موضوع
الحب الإلهي فجميع الرموز جاءت في هذا الموضوع و تربطهما علاقة قوية تكمل بعضها
البعض وهي رمز الخمرة و الحب الإلهي و رمز الغزل و رمز الطلل و الرحلة .

المصادر والمراجع:

- 1- ابن منظور ، لسان العرب ، 1823 ، م 5 ، دار صادر ، بيروت لبنان ، ص 356 .
- 2- الفيروز أبادي ، القاموس المحيط ، بيروت ، ج 2 ، ص 183 .
- 3- أحمد فارس بن زكرياء ، مقاييس اللغة ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، م 2 ، دار الجيل ، بيروت ، ص 439 .
- 4- علي قشيري زايد ، 2002 ، بناء القصيدة العربية الحديثة ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ص 104 .
- 5- قدامة بن جعفر ، نقد الشعر ، تح عبد المنعم خفاجي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ص 154 .
- 6- عاطف جودة ، 1988 ، الرمز الشعري عند الصوفية ، القاهرة ، ص 19 .
- 7- مصطفى ناصف ، الصورة الأدبية ، 1958 ، دار الطباعة ، مصر ، ط 1 ، ص 152 .
- 8- محمد أحمد فتوح ، الرمز و الرمزية في الشعر المعاصر 1984 ، دار المعارف ، مصر ، ط 3 ، ص 34 .
- 9- المرجع نفسه ، ص 34 .

- 10- محمد فتوح ، الرمز والرمزية ، مرجع سابق ن ص 41 .
- 11- إبراهيم هاني ، 1991 ، الغموض في الشعر العربي المعاصر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ص 275 .
- 12- محمد العزوزي ، الرمز ودلالاته في القصة الشعرية الجزائرية ، 2013 ، دارهيم ، ط 1 ، ص 09 .
- 13- السعيد بوسقطة ، 2008 ، الرمز الصوفي في الشعر العربي ، منشورات بونة للبحوث و الدراسات ، ط 2 ، ص 29 .
- 14- عبد الناصر ياسين ، الرمزية الدينية في الزخرفة الإسلامية ، دارميتافيزيقيا الفن الإسلامي ن دار الزهراء ، الشرق ، القاهرة ، ط 1 ، 2006 ص 17 .
- 15- عاطف جودة ، 1998 ، الرمز الشعري عند الصوفية ن القاهرة ، ص 31 .
- 16- فرحان كامل صالح ، 2005 ، الشعرو الدين ، دارالحدائث للطباعة والنشر لبنان ن ط 1 ، ص 121 .
- 17- عاطف جودة ، 1974 ، الرمز الشعري عند الصوفية ، مرجع سابق ، ص 88 .
- 18- فتح الله خليف ، ابن سينا ومذهبه في النفس ، دراسة في القصيدة العينية ، دارالأحد بيروت ، ص 128 .
- 19- المرجع نفسه ن ص 138 .
- 20- رايح بن خولة ، جماليات القصيدة الإسلامية المعاصرة ن الصورة ، الرمز التناس ، عالم الكتب الحديثة للنشر والتوزيع ، ط 1 ، 2013 ، ص 136 .
- 21- محمد أحمد فتوح ، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر ، مرجع سابق ص 37 .
- 22- المرجع نفسه ص 38
- 23- عبد الحميد محمود قضية التصوف المنقذ من الظلال ، 2023 ، دارالمعارف ، القاهرة ، ط 5 ، ن ص 94 .
- 24- المرجع نفسه ن ص 95 .
- 25- محمد مرتاض ، التجربة الصوفية عند شعراء المغرب في الخمسية الهجرية الثانية ، 2009 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ص 09 .
- 26- المرجع نفسه ، ص 12 .
- 27- أبي القاسم عبد الكريم بن هزان القشيري ، الرسالة في علم التصوف ، دارالكتاب ، بيروت ، لبنان ن 1957 ، ص 31 .

- 28- إحسان الهي ظهير، دراسات في التصوف، 2005، دارالإمام المجدد للنشر والتوزيع ، ط 1 ، مصر القاهرة ، ص 298 .
- 29- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.
- 30- السراج الطوسي ، اللمع في التصوف، 1960 ن دارالكتب الحديثة، القاهرة، مصر، ، ص 414 .
- 31- الكلاباذي ، التعرف الشعري عند الصوفية ، 2011 ، مكتبة الخانجي ن القاهرة ، ، ص 88
- 32- عاطف جودة، الرمز الشعري عند الصوفية ، مرجع سابق ، ص 357 .
- 33- ابن عربي ، الفتوحات المكية ، 2011 ، ج 2 ، دارالمعرفة ، بيروت ، ص 466 .
- 34- مختار حبار ، شعر أبي مدين التلمساني ، الرؤيا والتشكيل ، ص 34.
- 35- عبد الكريم القشيري ن الرسالة القشيري ص 107 .
- 36- مختار حبار ، شعر أبي مدين التلمساني الرؤيا والتشكيل ص 50
- 37- المنرجع نفسه ص 32 .
- 38- سيدي محمد ابي مدين الغوث ، ديوان العارف بالله ابي مدين الغوث ، اعداد بومدين بن عبد القادر سليمان ، وزارة الشؤون والاوقاف تلمسان ن ط 1 ، 2011 ، ص 36 .
- 39- المصدر نفسه ، ص 439 .
- 40- مختار حبار ، شعر أبي مدين التلمساني الرؤيا والتشكيل ، ص 82 .
- 41- سيدي ابي مدين الغوث ، الديوان ص 68 .
- 42- عاطف جودة ، الرمز الشعري عند الصوفية ، ص 359 .
- 43- المرجع نفسه ، ص 360 .
- 44- سيدي ابي مدين الغوث ، الديوان ، مصدر سابق ، ص 33 .
- 45- المصدر نفسه ، ص 214 .
- 46- مختار حبار، مرجع سابق ن ص 61 .
- 47- سيدي أبي مدين الغوث ، الديوان ، مصدر سابق ن ص 39 .
- 48- المصدر السابق ، ص 52 .
- 49- مختار حبار ، شعر أبي مدين التلمساني الرؤيا والتشكيل ، ص 88 .
- 50- سيدي أبي مدين الغوث ن الديوان ، ص 59 .